# اسْتهدافُ المخطوطاتِ في العراقِ خلال الحرب (١٩٩١، ٢٠٠٣م)

أُسَامة ناصر النقشبندي(•)

تعرّضت المخطوطاتُ العربية في العراق خلال الغزو الأجنبي السلجوقي والمغولي إلى الحرق والدمار والسرقة، كما تعرضت خلال مجيء طلائع الاستعمار في القرن السابع عشر الميلادي وما بعده، والمتمثلة في الشركات الأجنبية والدبلوماسية، والمنقبين عن الآثار للسرقة والتهريب إلى خارج العراق، حيث نُقلت آلافُ المخطوطات إلى خزائن أوروبا وأمريكا.

وكانت خزائنُ المخطوطات تعمّر بعد كلِ كارثة لتستعيد الأمةُ مجدَها ومكانتَها، ويتسابق الغيارى من أبناء الأمّةِ على رفدِها بالمخطوطات لإعادة المسيرة العلمية والثقافية إليها، لتنبض بالحياة من جديد.

وفي القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد أقيمت خزائنُ للمخطوطات بجهود العلماء الأعلام، ونالت عنايتهم في جمعها والحفاظ عليها. كما أسهمت دائرةُ الآثار في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي بعد صدور قانون الآثار رقم ٥٩ لسنة ١٩٣٦م - في جمع المخطوطات وتسجيلها في الحيازة باعتبارها من الآثار المنقولة بقوامها المادّي، واستمرّت هذه العملية وتضاعفت أعداد المخطوطات مع توالي السنوات، إلى أن بلغ عددها في دائرة الآثار اليوم نحو (٤٧) ألف مخطوط، والمخطوطات المسجلة في حيازة المكتبات الخاصة والعامة والأفراد أكثر من (٥٠) ألف مخطوط.

وفي حرب ١٩٩١م وما تبعها من أحداث تعرّضت بعضُ خزائن المخطوطات في العراق للدمار والسّرقة، ومنها مخطوطات الآثار التي نُقِل قسمٌ منها إلى متحف كركوك، وبلغ عددها نحو (٢٠) ألف مخطوط، تم إنقاذ معظمها في ظروف صعبة وإعادتها إلى دار المخطوطات ببغداد، ولا تزال (٣٦٤) مخطوطة في حكم المفقودات، قمنا بإعداد قوائم تفصيلية بعناوينها ووصفها وأرقامها. وقد تُرْجمت هذه القوائم إلى اللغة الإنكليزية، وأُرْسلت إلى المؤسسات الدولية لمتابعتها إذا ما هُرّبت إلى خارج العراق.

---

(•) خبير المخطوطات في العراق، ومدير عام دار المخطوطات العراقية منذ تأسيسها في سنة ١٩٨٨م، حتى عام ٢٠٠٢م.

كما تعرضت في تلك الفترة بعضُ مخطوطات النجف للسرقة والتلف، ومنها مخطوطات دار الحكمة التابعة للحوزة التي نُسِفت بنايتها، وبقيت المخطوطات في سرداب البناية. فبذلنا مجهودات خاصة لإنقاذها، واستخراجها ونقلها إلى الصحن الحيدري، حيث حفظت في غرفة جيدة أمينة في الصحن، وقد أُتلف بعضُها وتمزقت أوراقها. كما تمَّ انتشالُ مخطوطات ضريح الإمام علي بن أبي طالب ﷺ التي كانت محفوظة في إحدى غرف الصحن التي انهارت أرضيتها، وسقطت المخطوطات البالغة نحو (٧٦٧) مخطوطاً في الحفرة التي انهارت، وكانت تستخدم مدفنًا لبعض عوائل النجف. فعبثت الحشراتُ والقوارضُ بالمخطوطات، فقمنا باستخراجها وتنظيفها من الأتربة، ونقلها إلى غرفة جيدة زودناها بخزانات حديدية، كما تمَّ صنعُ أكياسٍ من القماش لكلِّ مخطوط، وكان من بين هذه المخطوطات (٦٧٨) مصحفاً كريمًا تعتبر من أنفس المصاحف المزوّقة في العالم؛ بينها مصاحف كتبت على الرق بالخط الكوفي تعود للقرون الأولى للهجرة، ومصاحف أخرى مزوّقة ومذهّبة كتبها مشاهير الخطاطين. وقد تعرض منها (٤٠٠) مصحفا للتلف والتمزيق، ففاتحنا منظمة اليونسكو للمساعدة لصيانتها وترميمها، حيث لا تتوافر في العراق الأجهزة والمواد الخاصة بالترميم والتجليد، كالورق الياباني بأنواعه، ولا الأصماغ الخالية من الأحماض بسبب الحصار الجائر.

وكلُ الذي فعلته منظمة اليونسكو إرسال خبير فرنسي، هو الدكتور جان ماري آرنو، الذي ألقى على موظفي الدار عشر محاضرات نظرية في الصيانة، ولم يتم تزويدنا بأيِّ مواد وأجهزة.

وفي منتصف التسعينيات تمَّ تطوير قسم المايكروفيلم في الدار، والذي وفرنا به آلات تصوير (١٦,٣٥ملم) سحبناها من بعض الوزارات، وأنجزنا تصويرِ أكثر من (٨) ملايين صفحة من مخطوطات الدار التي تمَّ نقلُ أصولها إلى ملجأ محصّن، كما تمَّ تزويدُ الدار في تلك الفترة بشبكة حاسوب متكاملة ومتطورة (مجموعة حاسبات واسكنرات، وجهاز فايل ماستر لتصوير المخطوطات الكبيرة، وجهاز استنساخ الأقراص الليزرية، وكاميرات رقمية عالية الدقة)، وأنجزنا تصويرَ بعضِ المخطوطات المزوّقة والمذهّبة.

وفي تلك الفترة تعرّضت مكتبة أوقاف الموصل للسرقة، حيث سرقت منها (٤٦٥) مخطوطة، و(٣) أسطرلابات نحاسية أحدها مؤرّخ سنة (٦٠٣هـ /١٢٠٦م)، وشمعدانات نحاسية من العصر

المملوكي. فقمنا بمتابعتها وأُلقي القبضُ على مدير المكتبة الذي كشف لنا عن الشخص الذي باع له المخطوطات، فاسترجعنا منها بواسطة الأجهزة الأمنية (٤١٦) مخطوطًا عند أحد المتاجرين، ومازالت (٤٩) مخطوطة لا نعرف مصيرها ولا مصير الأسطرلابات والشمعدانات.

وقبل بدء الحرب بعامين، ومع بداية التهديدات حصلنا على قرار رئاسي لسحب مخطوطات الجامعات العراقية والمجمع العلمي العراقي والمكتبات المركزية، وتم تشكيل لجنة لهذا الغرض قامت باستلامها حسب الأصول، ونُقلت إلى دار المخطوطات في بغداد، ثم تمَّ إخلاؤها إلى الملجأ الذرّي المحصّن والمزوّد بأجهزة تكييف مناسبة.

وقبلَ أربعة أشهرٍ من شنّ الحرب قمنا بنقل المخطوطات المتبقية في الدار- والتي تبلغ نحو (٣٧) ألف مخطوط - إلى الملجأ، بعد رزمها بصناديق حديدية مقفلة، وأُعدّت قوائم بمحتويات كلِ صندوق من ثلاث نسخ.

كما أُخليت آلافُ اللوحات والرقع الخطية والمنمنمات، وكل ما تحتويه الدار من وثائق رسمية وأضابير خاصة بالمخطوطات، والسجلات العامة، وسجلات الحيازة وقوائمها بشكل منظم، وكان كلُ ذلك بجهود موظفي الدار.

كما تمَّ نقلُ أجهزة المايكروفيلم وشبكة الحاسوب وملحقاتها إلى الملجأ، بإشراف الدكتورة ظمياء محمد عباس والموظفين العاملين في القسم الفني، وقام مسؤول قسم المايكروفيلم بنقل آلاف الأفلام المصورة للمخطوطات، ووضعت في (١٥) صندوقًا أُخليت إلى مسكن المسؤول عن القسم بشكل منتظم. وتمت عمليةُ الإخلاء بشكل كامل قبل بدء الحرب بأسبوع واحد.

وقد سعينا لانتقاء المخطوطات الخاصة بالرئيس السابق صدام حسين، والتي كانت محفوظة في متحف الهدايا في الرئاسة، وتحتوي على (١٦٠٠) مخطوط تضم مجموعة من المخطوطات النفيسة والنادرة والفريدة، وأخرى كتبت بالخط الكوفي على الرق، وتعود إلى فترات تاريخية قديمة. وسبق أن اشتُريت هذه المجموعة من قِبَل ديوان الرئاسة بأسعارٍ عالية، وللبائع حرية استرجاعها إذا لم يوافق على السعر وبدون مساءلة عن مصدرها. وبذلك تمَّ القضاءُ على عملية التهريب والمتاجرة رغم القرارات الصارمة بمنع الاتجار أو التهريب.

وقد قمتُ بالكشف على هذه المجموعة في متحف الهدايا، فوجدتُ أن مكانَ خزنها غيُر جيّد، ولا تتوافر فيه الظروف المناخية المناسبة وأنّها معرضة للتلف، فاقترحتُ نقْل هذه المجموعة الثمينة إلى الملجأ الذرّي العائد إلى دار المخطوطات، ورَفعَ المسؤولُ عن المكتبة مذكّرةً إلى الجهات العليا، فحصلت الموافقة، وتمّ نقلُها إلى إحدى قاعات الملجأ التي أُقفلت من قِبَلهم واحتفظوا بمفاتيحها . وبذلك تمّ إنقاذُ هذا الكنز من المخطوطات من السرقة والنهب أثناء الحرب، بعد أن تعرض متحف الهدايا للنهب والسرقة بعد سقوط النظام.

**مخطوطات جهاز المخابرات:**

بعد احتلال بغداد عثرت القواتُ الأمريكية على كمية من المخطوطات والكتب، من بينها لفائف جلدية لأسفار التوراة، موضوعةً داخل اسطوانات من الخشب بعضها مغلفة بالفضة في أحد مخازن جهاز المخابرات السابق، فاستولت عليها ووضعتها في شاحنة كبيرة مكيفة، وتمّ الكشفُ عليها من قِبَل خبراء دار المخطوطات والمتحف العراقي، فقُدّم تقريرٌ إلى هيئة الآثار بأنّها مواد تراثية يشملها قانون الآثار النافذ، ويجب أن تُسلّم إلى هيئة الآثار والتراث. إلا أنّ ممثلَ البنتاجون الدكتور إسماعيل حجارة (وهو أمريكي الجنسية، أُرسل من أمريكا للإشراف على هيئة الآثار والتراث) كان وراءَ نقلها إلى أمريكا، فحاولتُ إقناعَه بعدم الموافقة؛ لأن إسرائيل تسعى للاستحواذ على الأسفار اليهودية منذ السبعينيات، وهي بأقلام مشاهير الخطاطين اليهود في بغداد، وعمرها يزيد على(١٥٠) عامًا- فلم يكترث، وقبل أن يُتخذ أيُّ إجراء نُقلت هذه المجموعة خلسةً إلى نيويورك.

وبعد شهر من هذا الحدث طلب مني الكولونيل مكدونس قائد مفرزة القوات الأمريكية التي أُرسلت لحماية المتحف العراقي بعد أن نُهب – الكشفَ على المخطوطات الموجودة في الملجأ، فطلبتُ منه حضورَ بعضِ الفضائيات العربية والأجنبية لتصوير عملية فتح الملجأ، والكشف عن صناديق المخطوطات المحفوظة فيه. ففتحنا الملجأَ واطّلعوا على الكمية الهائلة من المخطوطات المحفوظة في الصناديق الحديدية بعد فتح الصناديق، وتمّ تصويرُ بعضها للتأكد من أنّها مخطوطات وليست صواريخ أو ما شابه ذلك؛ لحماية الملجأ من التعرض للدمار.

وفي اليوم الثاني من هذه الزيارة استدعاني الكولونيل وأخبرني بأنهم سينقلون هذه المخطوطات البالغة نحو (٥١) ألف مخطوط إلى مقرّهم، فحاولتُ أنا ورئيس هيئة الآثار السابق منعَهم من ذلك، إلا أنهم أصرّوا على نقلها، وطلبوا مني مصاحبتَهم إلى الملجأ، فأخذتُ معي أربعةَ موظفين من الآثار بعد أن أحضروا خمس شاحنات كبيرة، وعددًا من الدبابات والآليات العسكرية، وعشرات الجنود الأمريكان. وعندما وصلنا إلى الملجأ بهذا الرتل الطويل تجمّع المواطنون بالمئات، وأبدوا معارضتَهم لتسليم المخطوطات إلى الأمريكان، فعرض الكولونيل مبلغ خمسة دولارت لكلِّ شخص يشارك في نقلِ كلِّ صندوق، فرفض المواطنون ذلك وبدأوا بالاحتجاج والهتاف، فطلب مني الكولونيل الصعود فوقَ إحدى الدبابات فصعدتُ معه فوق الدبابة مع مترجمٍ أمريكي من أصل لبناني، وألقيتُ كلمةً للجماهير بيّنتُ لهم فيها أن هذه المخطوطات تمثل تاريخَهم وتراثهم الفكري والحضاري، ومن بينها مصحفٌ كريم نسبت كتابته للإمام علي بن أبي طالب ﷺ، فهاجت الجموعُ وبدأوا بالاحتجاج والهتاف، وكان النسوة يصرخن من شرفات منازلهن ويبدين معارضتَهن، فغضب الكولونيل من ذلك وقام هو وبعض جنوده بنقل (٣٢) صندوقًا، فتعالت صيحات الاحتجاج والهتافات ضد الأمريكان، وحاصروا الكولونيل في رواق الملجأ، وكادت أن تحدثَ مشكلةٌ كبيرة مما اضطر الكولونيل التوقفَ عن النقل والتراجع عن قراره. فأعيدت الصناديقُ المنقولة خلال دقائق من قِبَل المواطنين، وتعالت التكبيرات وزغاريد النسوة، وأخذن يوزعن الحلوى على الجماهير، كما تطوّع شباب المنطقة بتنظيم حراسات ليلاً ونهارًا مع وجود حارس رسمي في الملجأ، وتبرّع أحدُ الموسرين ببناء جدران لمداخل الملجأ الخارجية وبناء غرفة للحارس.

وبعد مدة قام السفير الأمريكي كوردوني مساعد بريمر بزيارة الملجأ من الخارج بعد أن رفضنا فتحَه، وطلبنا منه تعيين بعض الشباب المتطوعين - ولو بشكلٍ مؤقت - ليكتسبوا الصفة الرسمية. وفعلاً أصدر أمرًا بتعيينهم حراسًا مؤقتين. وهكذا تمّ إنقاذُ المخطوطات من الاستلاب والنهب والنقل خارج العراق.

وفي بداية عام (٢٠٠٤) صدر أمرٌ بإلغاء عقدِ عَملي خبيرًا علميًّا في دار المخطوطات، وإعفائي من عضوية اللجنة الفنية للآثار والمخطوطات، ومن مجلس إدارة الهيئة، ومن إشرافي على المباني التراثية و الأثرية.

ولابدَ لي أنْ أذكرَ بكلِ فخرٍ واعتزازٍ مواقفَ بعضِ موظّفي دار المخطوطات الذين أسهموا في تنظيم نقلِ المخطوطات إلى الصناديق؛ تثمينًا لمواقفهم الشجاعة وجهودهم المتميزة في حماية المخطوطات، وإعداد قوائم بمحتويات كل صندوق. ومعظمهم أُلغيت عقودُ عملِهم، وهم من الخريجين الجامعيين الذين اكتسبوا خبرةً جيدةً في ميدان المخطوطات، وعملوا لأكثر من أربع سنوات في المجال.

كما تمَّ استبعادُ الدكتورة ظمياء محمد عباس، التي كانت مسؤولةً عن إدارة الدار منذ إحالتي إلى التقاعد في ٢٠٠٢/١/١م، حتى عام ٢٠٠٤م. والتي عملت في الدار منذ عام ١٩٧٧م، وأصدرت سبعة كتب، وأكثر من ٢٠ بحثًا نشرت في المجلات العراقية والعربية، وناقشت رسائل الماجستير في الجامعات العراقية ومعهد التاريخ العربي، وشاركت في دورات المخطوطات في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ومركز جمعة الماجد بدبي، والدورات التي عقدت في بغداد، وأصبحت لها خبرةٌ واسعة في ميدان المخطوطات ولا يوجد من يعوضها، وتم تقديمُ شخصٍ يفتقد الخبرةَ والكفاءةَ، ولم يمارس العمل والاختصاص في ميدان المخطوطات.

وقَبلَ أن أُنهي قصةَ المخطوطات خلال الحرب، لابدَ من الإشارة إلى أنَّ معظمَ خزائن المخطوطات في العراق قد سَلمت من أهوال الحرب والسرقة في بغداد والمحافظات، عدا مخطوطات مكتبة الأوقاف المركزية في بغداد التي تبلغ نحو سبعة آلاف مخطوطة، تعرّضَ عددٌ كبيرٌ منها للسرقة والضياع. وقد سبق لنا أنْ طلبنا من وزارة الأوقاف تسليمَها إلى دار المخطوطات أمانةً قَبلَ الحربِ للحفاظ عليها، وإعادتها بعد تحسّن الوضع، وكرّرنا طلَبنا بشكلٍ رسمي عدة مرات إلا أنَّ وزير الأوقاف رفض ذلك. كما أُحرقت مطبوعات مكتبة الأوقاف وتفحّمت في رفوفها، وهي من أقدم المكتبات في بغداد.

والحمد لَهُ على ما قدّر وأنعم.